

جهود المستشرقين في القرآن الكريم بين الموضوعية والذاتية.

Orientalists' efforts in the Holy Qur'an: between objectivity and subjectivity.

د.فؤاد علجي*، جامعة محمد البشير الإبراهيمي - برج بوعريش/الجزائر foud.aldji@univ-bba.dz

تاريخ النشر : 2026/06/ 07

تاريخ القبول: 2026/02/ 25

تاريخ الاستلام: 2025/11/ 11

ملخص:

تحتل الدراسات العربية والإسلامية منزلة مهمة في الحوار العقلي الدائر بين أوروبا والإسلام، ولحق فإن فتوحات العرب الكبرى والمواجهة المسلحة بين الدولة الإسلامية الفتية والدول الأوروبية، لم يترك للساسنة الغربيين متسعاً من الوقت كي ينشغلوا بالدراسات العربية والإسلامية، يضاف إلى ذلك أن قيام العالم الإسلامي بالمحافظة على التراث اليوناني القديم في مجالات مختلفة، حثّ الأوروبيين على ترجمة العلوم العربية إلى اللاتينية، ولقد لقي موضوع تاريخ القرآن الكريم: تثبيته، وعدد سوره، وقراءاته، وتاريخ المصحف، ما لم يلقه موضوع آخر من الموضوعات الإسلامية التي اهتمت بها الدراسات الاستشراقية ويعود ذلك إلى أسباب منها ما يتعلق بمحاولة التثبت من صحة المصدر الأول للعقيدة والتشريع الإسلامي، ومنها ما يعود إلى محاولة عدد كبير منهم أن يجد فيه ثغرات نصية، مثل تلك التي أثبتتها النقد التاريخي في الكتاب المقدس، أي التحريف بالزيادة والنقصان.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق، القرآن الكريم، الموضوعية، الذاتية.

Abstract:

Arab and Islamic studies occupy an important place in the rational dialogue taking place between Europe and Islam. In truth, the great Arab conquests and the armed confrontation between the young Islamic state and European countries did not leave Western politicians ample time to be preoccupied with Arab and Islamic studies.

In addition, the Islamic world's preservation of the ancient Greek heritage in various fields urged the Europeans to translate Arabic sciences into Latin. The subject of the history of the Holy Qur'an: its confirmation, the number of its surahs, its readings, and the history of the Qur'an, was received by no other topic among the Islamic topics that Orientalist studies were concerned with. This is due to reasons including those related to the attempt to verify the authenticity of the primary source of Islamic doctrine and legislation.

Some of them are due to the attempt of a large number of them to find textual gaps in it, such as those proven by historical criticism in the Bible, that is, distortion by additions and subtractions.

Keywords: Orientalism, The Holy Quran, objectivity, subjectivity.

* المؤلف المرسل د.فؤاد علجي

مقدمة:

شكل القرآن الكريم دهشة الكثير من المستعربين والمستشرقين، وهذا راجع لما أحدثه القرآن الكريم من تغيير شامل في بنية المجتمع العربي والإسلامي، وما أحدثه من تغيير في الذهنيات والعقليات العربية والإسلامية، وما قدمه أيضاً للحضارة الإنسانية من زخم وحياة، وما قدمه للثقافة من تطور وتجديد.

كل هذه الأمور مجتمعة جعلت من المستشرقين يعكفون على دراسته وتتبع نصوصه بإمعان، فراه البعض مادة خصبة للأبحاث الموضوعية واشتد على البعض الآخر وقعه فأتار عنده الحقد الدفين، ومن هذا وذاك طغت على السطح الأكاديمي الأبحاث الاستشراقية للقرآن الكريم، فاتسم بعضها بالموضوعية، وبدا على القسم الآخر تبعات الهوى، وروائح الاستعمار وملامح التبشير في بعض الأحيان.

وحاولت في هذه الدراسة تنظيم جهود المستشرقين في الدراسات القرآنية المتنوعة، وتناولت بالبحث الموضوعي عطائهم الفكري مشيراً إلى أبرز أعمالهم في هذا المجال.

2. تأريخ القرآن الكريم عند المستشرقين:

لقد عني المستشرقون بتاريخ القرآن الكريم، وكانت عنايتهم مطردة ابتداءً من أوائل القرن التاسع عشر إلى المنتصف الثاني من القرن العشرين، فقد خصص المستشرق الفرنسي **بوتيه** وقتاً كبيراً لدراسة تأريخ القرآن، دارساً الظروف التي أحاطت بنزوله، وما جاء فيه من عقائد، وقد نشرت دراسته هذه في باريس عام 1840م، ثم جاء المستشرق الألماني **جوستاف فايل** وكتب رسالته مدخل تاريخي نقدي إلى القرآن وامتاز بحثه بشمولية الموضوع، ومعرفة المنهج التاريخي، وقد قسم في هذه الدراسة السور المكية لأول مرة إلى ثلاث مجموعات وعرفت الدراسات التاريخية للقرآن الكريم عمقاً جديداً مع المستشرق الألماني **نولدكه**، الذي ألف رسالته العلمية سنة 1856م بعنوان: أصل وتركيب سور القرآن ليعاد نشرها عام 1860م بعنوان: تأريخ النص القرآني الذي عالج فيه تأريخ السور والآيات بفتراتها المكية والمدنية وأوضح ميزات كل مجموعة من مجموعات السور، فجاء بحثه هذا أساساً مهماً لكل بحث في هذا الموضوع، وألف المستشرق الإنجليزي **أدوارس** كتاب أسماء التطور التاريخي للقرآن بحث فيه النزول المكي والمدني والتدوين والكتابة، وتكاد تختتم الدراسات الرصينة لتأريخ القرآن مع المستشرق الفرنسي **ريجيس بلاشير** في كتابه القرآن الذي احتوى على سبعة فصول، اختصت أربعة منها في تأريخ القرآن على النحو التالي:

الفصل الأول: المصحف بنيته وتكوينه.

الفصل الثاني: الرسالة القرآنية في مكة.

الفصل الثالث: رسالة القرآن في المدينة.

الفصل الرابع: الواقعة القرآنية وعلوم القرآن (الصغير، 1999م، ص 21).

ومما تقدم يبدو لنا أثر المستشرقين في دراسة تأريخ القرآن، فالصيغة العلمية هي الطابع لها.

3. القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية المعاصرة:

نال القرآن الكريم حظاً وافراً من الدراسة عند المستشرقين المحدثين والمعاصرين، وقد بدا ذلك جلياً في سعيهم الحثيث لتحقيق ونشر كتب علوم القرآن التي ألفها المسلمون، فكلف المستشرق الألماني **برجشتراسر** بمهمة جمع المصادر الخاصة بعلوم القرآن، فقام بهذه المهمة على أكمل وجه حتى وفاته، وخلفه مواطنه **أوتو بريتنسل** لإكمال هذه المسيرة العلمية الكبيرة، فقام بتصوير المصاحف والمؤلفات التي اهتمت بالقرآن وعلومه تصويراً شاملاً، ثم قام بتدوين كل الآيات في لوح خاص يحتوي على كل أنواع الرسم، مع بيان قراءتها وتفسيرها، وقد أنتج هذا الاهتمام الاستشراقي إخراج كتب منها التيسير في القراءات السبع، والمقنع في رسم مصاحف الأمصار، ومختصر الشواذ لابن خالويه، والمحتسب لابن جني، وغاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري،

ومعاني القرآن للفرأء، وحقق الأسترالي آرثر جيفري كتاب المصاحف للسجستاني وتم نشر الكتاب سنة 1931م، ونشر بريتل كتاب فضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام.

كما اهتم المستشرقون بفهرسة القرآن الكريم، فوضع المستشرق الإنجليزي وليام بدويل فهرساً للقرآن الكريم باللغة التركية وطبع في لندن عام 1615م، وألف المستشرق الألماني غوستاف فلوجل أول معجم مفهرس عربي للقرآن الكريم وسماه: نجوم الفرقان في أطراف القرآن وعكف الألماني مالير على جمع مفردات القرآن وأفعاله وحروفه ورقم سوره وآياته في كتاب سماه: دليل القرآن وطبع في باريس عام 1925م، والملاحظ أن محمد فؤاد عبد الباقي قد اعتمد على عمل فلوجل في تصنيف كتابه: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

وعملت الدائرة الاستشرافية على ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأوروبية المختلفة وكانت أول ترجمة للقرآن الكريم إلى اللغة الإيطالية قام بها أريفاين سنة 1437م، وحملت عنوان: قرآن محمد، وترجم القنصل الفرنسي في مصر أندري ريبه ترجمة مباشرة عن النص العربي، ونشر عمله بباريس سنة 1647م.

ونشر جورج سيل ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية التي لقيت ترحيباً واسعاً في الغرب إلى اليوم، ونقل المستشرق السويدي نور ميرج القرآن الكريم إلى السويدية سنة 1847م.

وأنجز الفرنسي إدوارد مونتييه ترجمة فرنسية جديدة، تم طبعها سنة 1925م، وهي الترجمة التي قال عنها الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي: "كنت طالعت في مجلة المنار مقالاً للأمير شكيب أرسلان عن ترجمة فرنسية حديثة للقرآن الكريم، وضعها الأستاذ إدوارد مونتييه، وقد قال عنها: أنها أدق الترجمات التي ظهرت لحد الآن... فافتنيت هذه الترجمة فوجدتها قد أوفت على الغاية في الدقة والعناية وقد ذيلها بفهرس لمواد القرآن مفصلاً أتم التفصيل" (الصغير، 1999م، ص66).

وقد أصدر المستشرق الإسباني خوان فيري ترجمة أولى إلى اللغة الإسبانية سنة 1953م، ثم أعلن إسلامه وأعاد النظر في ترجمته فأصدرها منقحة عام 1963م.

لقد شهدت الدراسات القرآنية صدور آلاف الدراسات الاستشرافية.

4. المصحف العثماني والمستشرقين:

ذهب المستشرقون إلى بحث جمع عثمان بن عفان رضي الله عنه لأن العمل الذي قام به عثمان بن عفان أعطى للمسلمين كتابهم في شكله النهائي، سواء من حيث الآيات أو من حيث ترتيب السور، ورغم شيوع الحكم بأن المصحف العثماني قد احتوى على مجمل الوحي الذي أنزل على النبي صل الله عليه وسلم، فإن بعض المستشرقين حاولوا الخروج على هذا الإجماع فطرحوا إمكانية إسقاط عثمان رضي الله عنه أو غيره من الصحابة رضوان الله عليهم لجزئيات منه، بهدف التشويش على المباحث الإسلامية بطرح أسئلة مقلقة، وقرر فون غرو نباوم ضياع جزء يسير جداً من الوحي أثناء الجمع العثماني فيقول: "وإننا لا نستطيع أن نجد الأسباب التي دفعت علماء القراء وبأمر الخليفة عثمان، إلى تقسيم نصوص الوحي التي بقيت بعد وفاة النبي صل الله عليه وسلم إلى 114 سورة غير متساوية الطول، ولا نستطيع كذلك أن نفسر بطريقة مرضية لماذا جمعت بعض الآيات في سورة واحدة، ولا أسباب قرار الكتبة تقديم السور الطوال وتأخير القصار، رغم أن هذه السور الأخيرة تحتوي وفي معظم الحالات أفكاراً أقدم وربما يكون السبب هذا الترتيب التشابه في الموضوع أو تطابق السجع" (الشايب، ص284).

وهنا بدا اهتمام فون غرو نباوم بالمسائل الشكلية التي احتواها المصحف، تلك التي تعلق بترتيب السور والآيات على حقيقة الإعجاز القرآني.

وهذه الفكرة أيضاً كانت عزيزة جداً على **جولد زيهر** الذي خصها ببحثه الوافر الذي لم يستطع الطعن فيه، فذهب إلى سلامته من التحريف، ولكنه ظن أنه وجد ضالته في ترتيب سور القرآن فيقول: "وهناك شيء لا يستطيع أحد إنكاره وهو أن الذين جمعوا، ودونوا القرآن في عهدي أبي بكر وعثمان لم يقوموا بهذا العمل كما يجب، فإذا استثنينا السور المكية القصيرة والتي استعملها كنصوص شعائرية قبل هجرته إلى المدينة، والتي تشكل كل آية من آياتها مبدأ كاملاً فإن باقي القرآن وخصوصاً بعض السور المدنية تعطي انطباعاً بالفوضى، وعدم التناسق حيث شكلت صعوبات كبيرة للمفسرين اللاحقين" (الشايب، ص284).

ولم يقف المستشرقون المتعاطفون مع الإسلام بعيداً عن موقف المسلمين، فنظروا إلى القرآن الكريم نظرة إعجازية فلم يشكوا في ربانيته ولذلك اكتفوا بوصفه والتعبير عن عظمتة، فقالت **لورا فيشيا فاغليري**: "إن معجزة الإسلام العظمى هي القرآن الذي تنتقل إلينا الرواية الراسخة غير المنقطعة من خلاله أنباء تتصف بيقين مطلق، إنه كتاب لا سبيل إلى محاكاته، إن كلا من تعبيراته شامل جامع، ومع ذلك فهو ذو حجم مناسب، ليس بالطويل أكثر مما ينبغي وليس بالقصير أكثر مما ينبغي، أما أسلوبه فأصيل فريد وليس ثمة أيما نمط لهذا الأسلوب في الأدب العربي إن آياته كلها على مستوى واحد من البلاغة، حتى عندما تعالج موضوعات لا بد أن تؤثر في نفسها وجرسها كموضوع الوصايا والنواهي وما إليها، إنه يكرر قصص الأنبياء وأوصاف بدء العالم ونهايته، وصفات الله وتفسيرها، ولكنه يكررها على نحو مثير إلى درجة لا تضعف من أثرها، وهو ينتقل من موضوع إلى موضوع من غير أن يفقد قوته، إننا نقع هنا على العمق والعذوبة معاً" (فاغليري، 1981م، ص56).

وأكد **بلاشير** في أكثر من موضع أن تدوين القرآن الكريم في زمن النبي صل الله عليه وسلم لم يكن تاماً، وأن جمع أبي بكر الصديق رضي الله عنه قد اعتمد على ما دون في عهد النبوة، فلما عثمان بن عفان رضي الله عنه كلف زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بالتدوين النهائي للقرآن الكريم في مصحف واحد، وأمر بإحراق ما دون ذلك بعد إتمام العمل. ومن الواضح أن **بلاشير** لم يخرج في هذا عما اتفقت عليه الروايات التي نصت على تكليف عثمان بن عفان رضي الله عنه لهؤلاء الرجال بتثبيت النص القرآني، وترتيب سورته.

5. القرآن الكريم والمعرفة عند المستشرقين:

وقف الفكر الاستشراقي من القرآن الكريم باعتباره مصدراً للتعرف على الدين الإسلامي، حيث أقر المستشرقون بمحوريته في هذا المجال فقال **جولد زيهر**: "إننا لا نستطيع فهم الإسلام دون القرآن" (الشايب، ص300).

أما فيما يخص كونه مصدراً للتعرف على السيرة النبوية فقد حكموا باستحالة ذلك، وكتب **سوفاجه وكلود كاهن**: "إذا قارنا محمداً بمعظم مؤسسي الأديان فإن الطابع التاريخي لسيرته قوي جداً، ولكن ليس معنى هذا أننا نستطيع أن نؤسس عنه سيرة مؤكدة وإذا كان القرآن يعلمنا سيرته فإنه من العبث أن نطلب منه أن يعرفنا على حياة محمد الخاصة، ودوره كرجل دولة" (الشايب، ص300).

فالمستشرقون لم يبحثوا في القرآن الكريم عن أحداث حياة النبي صل الله عليه وسلم، وإنما انصرفوا إلى البحث عن حياته الدعوية التي أجمعوا على أن القرآن هو أول وأوثق مصادرها.

6. الدراسات الاستشراقية في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم:

من النادر جداً أن تجد مستشرقاً يتبنى القول بتدني مستوى الخطاب القرآني ومن هؤلاء غرو بنلوم الذي يقول: "وقد انتقد القرآن بشدة من جراء النقائص في أسلوبه، وقد أجمع الغرب تقريباً على هذا الأمر، وكثير من المسلمين لا يحقون خيبتهم، أمام كل من أسلوبه وصوره وبعض هذه الانتقادات مصيبة تماماً، فلم يكن محمد كاتباً في مرتبة أفلاطون وإلهامه لم يكن يستطيع الاحتفاظ بمستوى سام إلا لبعض الوقت، ثم يسقط بعدها في المستوى العادي لنقص في الخيال" (الشايب، ص544).

وبالرغم من بحوث المستشرقين الحديثة على مطاعن في أسلوب القرآن، بقولهم بعدم تناسقه واحتوائه على عناصر متناقضة، إلا أن بلاشير أنصف بلاغة القرآن في كتابه: المدخل إلى القرآن إذ يقول: "إن شكل الوحي لا علاقة له بالشعر وإيقاع الوحدات المقفاة، في تنوعها وكثرتها وطلاوتها، لا تخضع لأي من قوانين الشعر العربي، وإذا قبلنا أن يختلط أسلوب القرآن في البداية عند أعداء الإسلام بسجع الكهان، فإن هذا الخلط لا يمكن أن يستمر إلا إذا كان صاحبه ذا نية سيئة، فمن الناحية الجمالية لا يوجد أدمى مقياس بين أقوال الكهان التي وصلتنا، وبين السور الأولى من الوحي المحمدي القوية المفعمة بالمعاني" (الشايب، ص546).

وأكد بلاشير هذا الحكم في كتابه: القرآن حيث نوه بشمولية تأثير أسلوبه فقال: "إن الاتهام الخطير للنبي بأنه كاهن أو ساحر، هو اعتراف بالتأثير العجيب لهذا النثر الموزون الذي يشيع عبثاً جمالياً يحس به حتى أعداؤه والقرآن إضافة إلى هذا يؤثر في غير العرب" (الشايب، ص546).

وذهب جب إلى تقرير سحر القرآن الكريم الذي لا يمكن تحدي مصدره فقال: "والواقع أن القرآن الكريم لا يمكن ترجمته بشكل أساسي إذ ليس بالإمكان التعبير عن مكنونه باللغة العادية ولا يمكن أن يعبر عن صورته وأمثاله، لأن كل عطف أو مجاز أو براعة لغوية يجب أن تدرس طويلاً قبل أن ينبثق المعنى للقارئ" (الشايب، ص546).

ونص فيليب على بلاغة القرآن فقال: "والقرآن كتاب حي فعال له تأثير بليغ في النفوس، وخصوصاً إذا تلى مرتلاً بلغته الأصلية، وبعض تأثيره في النفس راجع إلى ما هو عليه من حسن السبك، وعذوبة السجع والبلاغة وموسيقى الألفاظ والأناقة" (الشايب، ص547).

وهو الأمر الذي نص عليه عدد كبير من المستشرقين أمثال: جاك بيرك، ودومينيك وجاك ريسلر. ونخلص من استعراض هذه الآراء الاستشراقية في البلاغة القرآنية إلى تأكيد إجماعهم على سموه وروعته وسحر ألفاظه ومعانيه فأقروا أن القرآن تحفة تسمو على جميع ما أقرته الإنسانية.

8. خاتمة:

بعد هذه الجولة المضنية في رحاب هذا البحث نستطيع أن نقول إننا توصلنا إلى بعض الحقائق والمؤشرات يمكن التأكيد على أهمها بما يلي:

أن بحوث المستشرقين في القرآن الكريم تمثل جزءاً من بحوثهم لا كلها، بل أن العديد من البحوث قد أغفلت إلى حد ما، خاصة ما تعلق بالجانب البلاغي والنقدي واللغوي والتفسيري. أن الدراسات الاستشراقية للقرآن الكريم اتصف قسم ضئيل منها بالسطحية أو الحقد على الإسلام، واتصف القسم الآخر على النهج الموضوعي للبحوث الأصلية.

9. قائمة المراجع:

- ينظر: محمد حسين علي الصغير ، (1999م، المستشرقون والدراسات القرآنية ، ط1، لبنان، دار المؤرخ العربي.
- لخضر الشايب، نبوة محمد في الفكر الاستشراقي المعاصر.

